٢ - إرهاصات في الجزيرة

قبيل البعثة المحمدية

للأستاذ الطاهر أحمد مكي

ولكن ... من أين يستمد المؤرخ للجزيرة العربية حقائق بحثه ومادة موضوعه ، وما أثر عن العرب الأول متهالك مضطرب ينقض بعضه بعضا ، ويهدم آخره أوله ، فأنت أمام سيل متلاحق من القصص والسير ، والروايات والأحاديث ، إذا أعملت فكرك وعقلك في تمييزه ، وجدت اكثره خرافة لا تمت إلى الواقع بسبب ، وإنما هو من فعل الوضاع ، ترويجا لمذهب ، أو دفاعا عن فكرة ، أو سندا لعصبية ، أو رغبة ملحة في إضحاك الناس ، حين كانت الحياة العربية تموج بهذا اللون من الافتعال والاختلاق ، والباقية منه ، لا تعطي صورة واضحة محددة ، أو توحي بفكرة ثابتة متيقنة ، يطمئن إليها الضمير العلمي ، حين يعرض لأمر ، فيحكم فيه إثباتا أو نفيا . .

ومبعث ذلك كله ، أن التاريخ العربي كان يعتمد - إلى ماقبيل العصر العباسي - على المشافهة والرواية ، وهي عرضة للتصحيف والتحريف ، والزيادة والنقص ، والضياع والنسيان ، عند كل أمة وفي أي شعب ، فلا إجحاف إذن حين يمسك الباحث ، فلا يندفع مصدقا ، ولا بدع أن ظل العرب حتى الرسالة المحمدية ومطلع الإسلام ، شعباً بلا تاريخ !

كان القدماء عربا يتعصبون للعرب ، أو كانوا عجما يتعصبون على العرب ، فلم يبرأ علمهم من الفساد ، لأن المتعصبين للعرب غلوا في تمجيدهم وإكبارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم ، ولأن المتعصبين على العرب ، غلوا في تحقيرهم وإصغارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضا (١) . . .

صحيح أن هذه القصص وما صيغ من أساطير ، تتصل

(١) في الأدب الجاهلي ، للدكتور طه حسين ص ٦٦ [الطبعة الثالثة]

أخوف ما أخاف أن تكون مؤامرة مدبرة يفعلها عدو مختبئ ويسلك إليها سبله ، وأولها إيقاع اليأس بيننا بأيدينا . فسياسة التفريق هي السياسة التي يعتمد عليها مهرة الساسة ؛ والعدو الكاشح فينا ما أوجف عليها من خيل ولا ركاب . ولما بلغ معاوية أن الأشتر النخعي مات في شربة عسل وكان من شيعة علي قال معاوية إن لله جنودا منها العسل ، فسيقول خصمنا (إن دامت الحال) إن لنا جنودا منها الفشل . لقد عرف العدو كيف يحقن خصمه بالسم المخدر الذي يسهل به ارتكاب أكبر جريمة على الله والدين والوطن فما يفيق الناس إلا وقد وقعت الجريمة ونفذ السهم وإلا فما بال هذا الأزهر الكريم الذي كان ملاذ اللائذ وملاذ العائذ ومفزع الملهوف ونصفة المظلوم ، والذي كان قوام كل مائل وقصد كل جائر . والذي كان أعز على كل نفس مؤمنة من كل عزيز عندها قد أصبح بئن ويستغيث ولا مغيث . هذا الأزهر الذي كان يقضي بالحق في خصومات الدنيا ومشاكلها قد جاءت عليه قضية لا حاكم فيها إلا الله (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم). أما والذي نفسي بيده لئن تكن نوايا خبيثة بمصير الدين فإن الله خير الماكرين . (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك ، كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) إن قضية الأزهر معلومة مفهومة ، وكل مسلم مطالب بالنظر فيها وعلى رأس الجميع ملوك الإسلام . فقد بدت ظاهرة استهانة واستهتار ؛ تنذر بسوء المصير وعندئذ فستغل كل عنق في الأرض ربقة إثم لا قبل له باحتمالها ولا سيما ولاة الأمور جميعا يوم يقوم الناس لرب العالمين :

فلا تحمل ذنبي وأنت ضعيفة ... فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

محمود النواوي

المفتش بالأزهر

بعادات العرب وطباعهم، تلقى إشعاعا قويا على حياتهم ومعاشهم، لأن الوضاع وهم أقرب عهدا بهم، وأكثر علما بما كان عليه أسلافهم، اجتهدوا ما وسعهم الجهد، واحتالوا ما واتتهم الحيلة في أن يجعلوا هذه الصور واقعية، أو قريبة الشبه بالواقع، حتى لا ينكشف أمرها، فتضيع الفائدة المرجوة منها، ولكن الصحيح أيضا، أن الصورة تكشف فيها تكشف عن نفسية المصور، وأن الرواية تتأثر فيها تتأثر بأخلاق الواضع، وتفاعلات المجتمع الذي عاش فيه . . .

ولعل أغمض فترة في التاريخ العربي، هي تلك التي تمتد من القرن الأول الميلادي حتى القرن الثامن، فليس ثمة تاريخ صحيح لها، حتى المصادر اليونانية أو اللاتينية لم تشر اليها، رغم أن هذه المصادر عرضت لأحوال الجزيرة قبيل ذلك التاريخ «ومرجع ذلك فيما يبدو هو ظهور المسيحية وانتشارها في الغرب وتسلط الأضواء عليها، وجذبها لأنظار العالم المثقف إذ ذاك، وانصرافه عما عداها. وكذلك الإسلام من ناحية أخرى، فهو كما نعلم جاء مناهضا للوثنية العربية الجاهلية، فشن حربا لاهوادة فيها على كل ما هو عربي وثني، لذلك تطوع كثيرون من كتاب العرب لتشويه العهد العربي الجاهلي، تاريخا وأدبا وعقائد، وأضحت الصورة التي لدينا، والتي يقدمها لنا الاسلام والمسلمون صورة مشوهة، لا تعبر عن حقيقة بلاد العرب قبل الاسلام»[1] وليس أقوى على ذلك دلالة ولا أبلغ حجة، من أن القرآن وسم عصر ما قبل البعثة بالجاهلية، وبداهة كان يقصد أن القوم لم يكن لهم نبي مرسل ولا كتاب منزل، وإلا فكيف نصم بالجهل وندمغ بالجهالة مجتمعا له آداب رفيعة، وثقافة عالية، كتلك التي تركها لنا العرب القدامى، ولكن الإسلام وهو يواجه قوة قريش في عنفوانها، لم يجد بدا من إسدال الستر على ما قبله من حياة، ومطالبة معتنقيه بترك ماورثوا في صرامة، والعزوف عما ألفوا في شدة، حتى يمهد لدعوته سبل القرار، وكان له ما أراد إلى حين

وكان الشعر ديوان العرب الخالد، يجمع مفاخرهم، ويسجل عظائمهم، ويصور حياتهم، وتنعكس على محياه خلجات نفوسهم، ونبضات قلوبهم، فنهى عنه؛ وصادر روايته، وشن حملة شديدة على الشعراء ورواتهم «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون مالا يفعلون؛ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا» ويروى الأغاني أن أمية بن الصلت كان يحرض قريشا بعد وقعة بدر يقول

ماذا ببدر والعقنـ ـقل من مرازبة جحاجح

فنهى الرسول (ص) عن رواية القصيدة كلها [1]، وكان لذلك أثره فيما بعد، فلما انتصرت العصبية في العهد الأموي، وعاد الشعر يحتل مكانته من جديد، كانت يد الرقيب قد امتدت إلى مابقي من العهود الأولى، فحذفت وبترت، وغيرت وحورت، مرضاة لله أو تقربا إلى السلطان

وقد تعرض القرآن الكريم لما كان عليه العرب، هادما وقادحا، ذاما وناكرا، ولكنه لم يعرض لكل شيء، ولم يهدم كل شيء. وما اعترض عليه أو دعا إلى هدمه ذكره مجملا فلم يعن بالتفاصيل والجزئيات، أو الأسباب والدوافع، وإنما يفسر الشيء بسببه أو دافعه، وتكييف الحادثة بظروفها المهيأة، وما أحاط بها من ملابسات

* * *

ومع ذلك، فلنحاول في هوادة ويسر، أن نشق طريقنا خلال هذه الحجب، لا غالين ولا متعصبين، وإنما رائدنا الصدق، وغايتنا الحق، ومنهجنا الإخلاص؛ وعلى المرء أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح!

«يتبع»

الطاهر أحمد مكي
كلية دار العلوم — جامعة فؤاد الأول

(١) من محاضرات مسموعة بتصرف للدكتور فؤاد حسنين

١ — الأغاني جـ ٤ ص ١٢٢ «طبعة دار الكتب»